قوالب الشعر الحديثة

بقلم ابراهيم العريض

الذي يبدو المؤرخ او الناقد الادبي لأول وهلة ان القوالب التي تسبك لصوغ الشعر العربي الحديث جديدة .. والحق انها ليست جديدة كل الجدة . فلو كان قس بن ساعدة الايادي بيننا اليوم لاعتبر نفسه من المجددين بآية قوله المأثور:

ليل داج
وسماء ذات ابراج
وأرض ذات فجاج
وبحار ذات امواج
مالي ارى الناس يذهبون
ولا يرجعون
أرضوا بالمقام فأقاموا
أم تركوا هناك فناموا ؟

فالأصل في الفكرة كان معمولاً به حتى في الجاهلية في نطاق الخطابة الضيق، وإنما توسيع تطبيقها اليوم في الشعر هو الجديد. واعتقد ان الثورة على قوالب الشعر القديمة اول الامر كان الدافع اليها الاسباب نفسها التي جعلت الجاهلي يصيح :

ما أرانا نقول الا معـــاراً او معاداً من قولنا مكرورا

ولكن في ظروف غير ظرفه، وجعلت الاندلسيين ينظمون الموشحات وشعراء عصور الانحطاط « بنودهم ». ولكني اخشى ان تعود صيحة الجاهلي بعد اليوم اكثر انطباقاً على هذا الغث الذي يتعجله بعضهم فراراً من عمود الشعر القديم .

ولقد كان هذا الانقلاب لثلاثة امور . فقد وجد المثقفون منا ان هناك شعراً عند سائر الامم لا يقل روعة عن هذا الذي يستعظمه ويستظهره العرب . وان بعض هذه الامم لا تملك من ناصية قوافيها غير بضع قوافٍ من ثلاث في الأغلب الأعم الى عشر على اكبر تقدير ... كالأمة الانكليزية . ومع هذا فهي تتفوق في الشعر وتجيد فنونه. وقد تم لها ذلك بالمناوحة بين هذه القوافي المحدودة والتلاعب في عدد تفاعيلها على اشكال . وان بعض هذه الامم لا اعتبار عندها للقافية مطلقاً في بعض آثارها كاليابان ولها ايضاً شعر جميل بفضل هذا الذي يسمونه جناساً ، تجانس به في القوالب بين الفاظها سواء أكانت المزاوجة في اواخر الكلم كما نأخذ به او في اوائلها كما هم يفعلون . وان اماماً ثالثة لا تقيم من التفاعيل شيئاً في الكثير كالصين . وهي بعد تجيـــد الشعر على طريقتها في البيان . وتعوّل في اظهار روعته في الكلام على المقابلة بين مترادفات المعـــاني او على ما يعرفه البديعيون عندنا بالطباق ، كما نجده ايضاً في شعر التوراة . فهذا ما وجده المثقفون من الشعراء .

اما سائرنا فقد ارتأى إن اللغة العربية قد استنفدت في هذا القول المكرر المعاد جهد امكانياتها في القوالب المطروقة . فلم تبق قافية قصدوا استعمالها لم يبلهـا الشعراء نظماً واستعمالاً في المعنى نفسه اكثر من الف سنة . ولا وزنٌ لم يعارض فيـــه المحدثون من سبقوهم الف مرة . وارتأوا ايضاً – وهم على حق – ان قوالبنا القديمة جعلت للقول ميسم اهله في ميدانهم الخطابي . وكان بعضهم بنجوة عن هذا الميدان فكان صعباً عليهم في حدود هذه القوالب ان يعبروا عن ذوات انفسهم بالحرية الغيبية اللازمة. وان يتحاشوا عقابيلها الا بتضحية فنيـــة كبيرة . وربما فات هؤلاء ان هذه الصعوبة لا يشكوها غير المقلدين في كل زمان . اما المبدعون فيشقون لهم طريقاً بمناكبهم القوية في الزحام على هدى بصيرتهم النيرة . ثم انهـم كانوا يعلمون بأن الشعر العربي عاش قصير الانفاس لا يقوى على الملاحم الشعرية وكان المسئول عندهم هي القافية .

وقامت بيننا فئة ثالثـة هي التي كانت اجنبية الثقافة غربية التفكير، فهذه لم تحسن العربية ابداً ولا كانت تستطيعه لو ارادت. فكان امر التفاعيل والاوزان عندها طلسماً لا تقوى على فك اقفاله . فارتضت لنفسها ان تسير على ما عرفته من الشعر الاجنبي تستوحي ظلاله مطلقة من كل قيـد ولكن في الفاظ عربية . وفات هذه الفئة ان الالفاظ لا تقف دلالتها اللغوية على قيمتها الزجاجية اللامعة وانما وراءها في المرآة تاريخ بشر . وان لقوالبها في الوقت عينه قيمة اخرى اعظم يخلقها الشعراء باستيحاء روح الأمة في تاريخها الأدبي فتتقبله اللـــغة قريرة العين. فهذه القوالب لا يمكن نقلها من لغـة الى لغة الا بتضحية كبيرة من روحها الخاص في النقل والترجمة .

وجاء المقلدون الذين لا يحسنون ثقافة او لغة اجنبية او ادباً وراء الفئات الثلاث فرأوا امامهم شيئاً جديداً ينادى بـه سهل

مسابقة «الآداب» الشعرية

تدعو « الآداب » شعراء العربية في مختلف اقطارهم الى المشاركة في مسابقة شعرية تتناول الموضوعات التالية :

اولاً — عودة اللاجئين
ثانياً — الوحدة العربية
ثالثاً — المرأة في المجتمع العربي
رابعاً — حرب على الاستعمار
خامساً — حرب على الاقطاع

الشروط

١ — يحق للشاعر ان يشترك في اكثر من موضوع واحد
٢ — يحسن بالقصيدة الا تتجاوز مئة بيت ولا تقل عن ثلاثين
٣ — لاضرورة لوضع اسم مستعار للشاعر
٤ — تنتهي المسابقة في آخر تشرين الاول القادم ١٩٥٤ .

الجوائز

الاولى — ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها
الثانية — ١٢٥ » » »
الثالثة — ٧٥ » » »

التناول عظيم الارباح . فرفعوا عقيرتهم بالخلاف . . وهم اعجز . . حباً في الظهور وحده . ومضوا يشترون البضاعة ويبيعونها في الاسواق بكل صفاقة .

فكانت التجربة .

وانما لم تتحقق التجربة على هذا الوجه كل هذه القرون، لأن الشعراء كانوا يتخذون الشعر الجاهلي مثلهم الأعلى في الصياغة تهيباً لمقامه ؛ وكان عموده قائماً على هذه البحور الستة عشر بتفاعيلها التي كان الخليل — نابغة العرب بحق — جد موفق في استقرائها من منظوم كلامهم . فما شذ عنها كان عند العرب من النادر الذي لا يعبأ به ، اذ كان لا يوافق طبيعة ترسّلهم في البيان .

فاذا جاوزنا ما يسمونه بالشعر الطلق او المرسل الذي يرسل نفسه ارسالاً غير متقيد بقافية ، كصنع هذه المدرسة التي ترعاها مجلة « الأديب » وما ينظمه بين الفينة والفينة صاحبها الاستاذ البير اديب ومن حذا حذوه كثريا ملحس في «نشيدها التائه» ، وهم قد فعلوه على غرار بعض ما استظهروه من صور الشعر الاجنبي مترجماً في فقراته المرسلة ، وجدنا التجربة تبدأ اولاً في القوافي .

فقد كان من اوائل التجارب في سبيل التحرر من القيود :

١ — تنويع القوافي في ابيات القصيدة الواحدة بيتين بيتين .

ومن امثلته « النهر المتجمد » لميخائيل نعيمة و « اوهام في الزيتون » لفدوى طوقان و « شجرة القمر » لنازك الملائكة .

٢ — تنويع القوافي بالمناوحة بينها في كل عقد يؤلف من ثلاثة ابيات فأكثر على اشكال في قصيدة ذات عقود متشابهة النغم . ومن امثلته « آفاق القلب » و « لو تدرك الاشواك » لميخائيل نعيمه و « الطلاسم » و « تعالي » لايليا ابو ماضي و « سكران وسكرى » لخليل مردم و « في ظل وادي الموت » للشابي و « في فمي لحن » لأمجد الطرابلسي و « في مصر » و « انا وحدي مع الليل » و « الى صورة » لفدوى طوقان » و « الزهرة السوداء » لنازك الملائكة .

٣ — تنويع القوافي في قصيدة طويلة ذات مقطوعات لكل مقطوعة قافيتها . ومن امثلته « على بساط الريح » لفوزي المعلوف و « ارواح واشباح » لعلي محمود طه و « جان دارك » لعمر ابو ريشة و « يا نفس » لنسيب عريضة و « الاشواق التائهة » للشابي و « ديوان شعر » للسياب و « انا وابني » لايليا ابوماضي و « اغنية الحياة » لنازك الملائكة .

٤ — وتلحق بهذه الاخيرة تغيير اوزان في قصيدة طويلة بين مقطوعات لا تتشابه شكلاً اثناء تنويع قوافيها . ومن امثلته « الشاعر والملك » لايليا ابو ماضي و « عبقر » لشفيق المعلوف و « اغاني الراعي » لالياس فرحات .

وكل هذه التجارب كانت ناجحة كما يتبين من هذه الامثلة. فتفاعيلها قائمة في البيت على شطريه حسب ما قدر لها الخليل. وقد كان نجاحها اكبر دليل على ان القافية هي نقطة الارتكاز الموسيقي في الشعر عند العرب سواء أجاءت مفردة او متناوحة مع اخواتها [1].

ويجب ألا ننسى ايضاً تجربة قام بها الأقدمون للتحرر من القيود وذلك بالتزام القافية بين شطري البيت الواحد فقط كما كما فعل العرب في بحر « الرجز ». فجددها شعراؤنا في غير هذا البحر ونجحوا. ومن امثلته « الحب » لرئيف الخوري و « انت وانا » لأمجد الطرابلسي. بينما التزمها بعضهم بين شطري كل بيتين كما فعل مطران في « هل تذكرين ».

ولكن التجربة الحقيقية بدأت – بعد – وكان مجالها التفاعيل نفسها. وكانت الامكانيات هنا ايضاً واسعة. ففي بعض الأوزان (وقد حددتها نازك الملائكة – في ضوء ما وقع – بستة لا غير) [2] حاول الشعراء الجدد :

(١) التلاعب في عدد تفاعيل القصيدة الواحدة وهي باقية على قافيتها.

كما فعل نزار قباني في « طوق الياسمين » و « اوعية الصديد ».

(٢) التلاعب في عدد تفاعيل القصيدة وهي تتنقل بين قوافيها تنقلاً يسيراً.

كما فعل نزار في «رسالة الى سيدة حاقدة» ورائعته «حبلى».

(٣) التلاعب في عدد التفاعيل في القصيدة الواحدة لها عقود متشابهة تتناوح فيها القوافي بانتظام كما فعلت نازك الملائكة في « فلنفترق » وفي « انا » وفي « غسلاً للعار » وبدر شاكر السياب في « اساطير » ونزار قباني في « سامبا ».

(٤) التلاعب في عدد التفاعيل في القصيدة الواحدة لها عقود مختلفة تتناوح فيها القوافي على اكثر من وجه. كما فعلت نازك الملائكة في « الوصول » وفي « النهر العاشق » ومحمد مجذوب في « آه لو تنفع آه » وكاظم السماوي في « الحرب والسلم ».

(٥) التلاعب في عدد التفاعيل في القصيدة الواحدة لاعقود لها تتناوح فيها القوافي مرسلة اشكالاً كصنع السياب في « حفار القبور » وهنا كان التخبط وسال السيل. وكان اشبه شيء صنعاً بـ « بنود » شعراء عصور الانحطاط. كما جاء في قول احدهم أظنه ابن نباتة مثلاً :

ايها الرائح يطوي مهمه البيد
ضحى بالضمر القود
رويداً واصطباراً
كيف تسطيع بان تجنح للسير
بما فيه من الضير
وقد فارقت من في وجنتيه يشبه الشمس
وفي محياه يحيي ميت الرمس
هو اللذة للخمس
وأقصى منية النفس
غزال يقق الثغر
. . . . . الخ.

هذا كان ثمة اختلاف في المضمون فهو ناشيء عن اختلاف وحي العصرين.

ولا انكر ان بعض هذه التجارب كانت ايضاً ناجحة اذا اسقطنا من الحساب زيف المقلدين ما عدا المحاولة الأخيرة لعيوب فيها فنية ألمت بها نازك الملائكة في مقالها.

وقد بقي مجال وراء هذا تحاشاه الشعراء الجدد حتى الآن. وهو المزاوجة في تفاعيل وزنين يختلفان بحراً. فهل تصدق لهم التجربة فيه ايضاً ام يتبين لهم آخر الأمر ان مشكلة الشعر التي يحاولون حلها بالتهرب من اوزان الخليل هي اكبر من هذه القوافي والأوزان ؟

البحرين — **ابراهيم العويض**

(١) راجع استفتاء (الآداب) عدد آب ١٩٥٣ – الشعر العربي بين التقييد والتحرير.

(٢) في بحث لها نشرته (الأديب) بعنوان (حركة الشعر الحر في العراق) – عدد يناير ١٩٥٤.

صدر حديثاً

الدنيا تتحدث عن نفسها

تأليف : عبد اللطيف شراره

مجموعة احاديث وقصص طريفة تتناول اهم مشاكل العصر ووسائل حلولها

منشورات

دار مكتبة الحياة – بيروت